البداية:

منذ الوهلة الأولى وعت قريش أنها مُقبلة على حرب وجود، ولكن ما الذي ستفعله ؟ فالحرب ليست على المستوى العسكري إنما هي حرب تتعلق بتغيير الأفكار، ف المساوة غير واردة عندها، والتخلي عن السيادة أمر مرعب، وإله ملموس أجدى نفعاً من إله محسوس. فما الذي سيجدي نفعاً بعد أن صُدمت بجدة المطروح، لقد تلفتت حولها، واجتمع علية قومها أكثرَ من مرةٍ لتدارك الموقف، فإن تهديداً حقيقياً وجه نحو سلطتهم، وكانت الفكرة في إدارة حوارات مع صاحب الرسالة، ومعرفة ما الذي يسعى إليه من وراء الخروج عن نسق الآباء إلى نسق آخر جديد يتمثلُ بمركزية الإله الواحد غير المرئي، وكانت قد فكرت ملياً بإرسال شخص بموصفات خاصة ليطلعَ ويفهم ما الذي يقوله الدين الجديد، وقد وقع الإختيار على الوليد بن المغير بن عبد الله بن عمر المخزومي[1]، وكان هذا الإختيار مدروساً بشكل جيد فالنفوذ والمال وكبر السن الذي يمنح الخبرة والدراية والمعرفة بفنون القول، كانت كلها من مواصفات المُرسل وكان غرض قريش من ذلك هو عدم التأثير به فهو لا يحتاج إلى مال أو سلطة وقد خبر الحياة وعرفها، وله إطلاعٌ واسع على لغة العرب، وفنون كلامها، مما يجعله قادراً على فهم الخطاب الموجه إليه .وكأن قريش أرادت أن تطرح فكرة الجاه والمكانة ولسان حالها يقول أنظر يا محمد مَن أرسلنا إليك إنه سيد القوم ، وكأنّ سادات القوم لم يتأثروا بك هؤلاء مَن يحوزون شَرف المكانة وكثرة الأموال أنا أمثلهم، فمن أتباعك؟

وكان ثمة أمر آخر يقعُ خلف الإختيار وهو لا بُد من أن يكون كارهاً للدعوة الجديدة، ولا ينبع كرهه من عدم تقبله للأفكار التي تحملها فقط، بل ربما ينبع من لماذا لم أكن أنا؟ وأنا سيدها، فيتحد عاملا الكره والطمع داخل الأنا، وهذا يعني أن القضية قضيتي والوجود وجودي لذا ستكون الدافعية في أوجها حين تكون الذات محركاً لها، ويؤكد هذا قوله: "أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف، فنحن عظيما القريتين " [1]، ف الرجل لم يخفِ مشاعرَه وصرحَ بأحقيته فهو أحدُ العظيمين، وهذه العظمة على وفق العقلية العربية[1]، كانت تتأتى من المال وشرف النسب فهما قوتان تمنحان صاحبهما أولوية التصدي لأي موضوع كان، فتلقفت قريش هذا التصريح ورأت فيه كل الموصفات المناسبة ليكون هو رسولها إذ هو يملكُ الدافعَ وما يعززه، وعلى وفق هذا أرسلت قريشٌ حكيمَها و صاحبَها، ليفهمَ ما يُقال عله يكون قادراً على أن يجدَ ثغرة ينفذُ منها لتفنيد ما يسمعُ ويصرح ببطلانه .

تنبه الرسول محمد صل الله عليه وآله وصحبه إلى قدوم الوليد بن المغيرة فأعاد ما كان يقرأ من القرآن الكريم، وكان القصد منها بيان كلمات القرآن الكريم من أمور عدة التراصف اللغوي لها والذي يؤدي المعنى بصورة جلية لاستحصال التأثير في المُتلقي بل إن الإختيار للمقروء كان مدروساً إذ كان يقرأ قوله تعالى :"حم تنزيلٌ

الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ العَلِيمِ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِي الطَّوْلِ* لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ المَصِيرُ "[4] لقد أوضح الرسول محمد صل الله عليه وآله وصحبه مصدر ما يقرأ وارتباطه ، وكأنه يُجيب على تساؤل ذهني بديهي والدعوة في بدايتها من أين تأتي بما تقرأ فهو من عند الله جل وعلا ، وهذا الإله يا وليد غافر الذنوب ويقبل الاعتذار فأعلن عنهما وهذه فرصتك ، وأن تتمسك بما أنت عليه فهو في المقابل شديد العقاب ، وهو بجانب ذلك سعته وحلمه وغناه أكثر مما يستوعب عقلك على الصعيدين المعنوي والمادي ، ففي الغنى المادي أنت لا تملك ما يملك ، وما يملك يجعله غني عن عباده معنويا وماديا ، فليس ثمة شريك له في المُلك ولا مصير لأحد خارج ما يقرره، ولا رجوع إلا إليه .

عاد الوليد ربّما بشيء كان أقوى حتى من التأثير فيه، إذ سقط أحد أسباب الإختيار ولم يستطع الرجل مقاومة ما سَمع وعاد مصدوماً وملامحه تدل على أن شيئاً جديداً يقبع في عمق ما سمعه، لقد عاد بشهادة للتأريخ على صدق النبوة وصحة المصدر، فكيف عبر عما سمع لنتفحص قوله: "والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن. والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق. وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وما يقول هذا بشر" [4]. و السؤال هنا ما الذي سمعه؟ أهو كلام يخالف الكلام ؟

يبدو أن تداول اللغة شفاهيا رسخ في أذهان العرب قوالب لغوية وطرقا معينة لفهم الكلام ، في حين أن القرآن الكريم خالف ذاك الترسيخ وخرج عن قوالبهم ، فتحيروا في قياسه أهو قوالب شعرية أم صياغات نثرية ، وفي الحقيقة هو يباعد كليهما شكلا وتعبيرا إذ ليس ما يقيده .

كما أنه أشار إلى سمعت لنتبين ثبوتية المنهج القرآني في الخطاب فليس له علاقة بـ المكانة التي يمثلها المُتلقي وإنما الخطاب يهتم بالعقل ومدى قدرته على إيضاح الحقائق وصولا ً إلى التغيير ، فسماعه وهو مار يدلل على صدق الموقف ، بل وصف بأن ما سمع يقع خارج حدود القدرة البشرية على الصياغة والرصف ، وبالتالي قطع الوليد صلة القرآن الكريم بالرسول صل الله عليه وآله وصحبة من حيث الصياغة ، وبات يبحث له عن صلة أخرى (أهو من الجن؟)[4] ، ولكنه رفض هذا أيضاً ، ويبدو أنه كان مُطلعا على لغة الجن ، أو لنقل أنه يعرف شيئاً عنها ، وإلا كيف استطاع تخريجه منها ، وهكذا قطع صلة أخرى ، ولقد أكد القرآن الكريم وجود هذا النوع من المخلوقات بقوله تعالى : " قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا "[4] ومثلما استعجب الوليد وانبهر بما سمع ، أصاب ذلك الجن فقد تعجبوا ، ويبدو الاتفاق واضحاً بين سماع البشر وسماع الجن فكلاهما وقف عاجزاً عن نسبة ما سمع ،وكلاهما يرى أن الآخر غير قادر على أن يأتي بمثل تلك المعاني وتلك الصياغات ، وإن الروح العامة التي ينبع منها لا يمكن أن تكون إنسية ولا جنية .

ولقد طرح الشعراء فكرة إلهام الجن لهم، حتى بذكر اللفظة بشكل صريح وها هو امرؤ القيس يقول:[8]

تخيّرني الجنّ أشعارَها فما شئتُ من شعرهن اصطفيتُ

فيرسم لنا مدى طواعية الجن له وكأنه الآمر الناهي عليها، فهي تعرض عليه وهو يتخيّر، ونسي الشاعر أن في المقابل الآخر كأنه صرح بأن ما يقول من شعر ليس له، وهو بمثابة رأي لا أكثر، والاخطر أنها تمرر ما تريد عن طريقه، ولكن هذا التفسير يبقى مُبهما عند عامة الناس لجوانب تتعلق بالمعرفة والإعتقاد، ويبقى أن ما يُريد الشاعر اثباته هو تلك المكانة المُتحصلة له من ذلك. ويذهب الحُصين بن الحمام في قوله:[8]

وقافية غيرُ إنسية قرضتُ من الشعر أمثالها

فإن ما يقول مقروضاً على شاكلة ما سَمع، وإن ما سمعه كلام لا ينتمي إلى بني جنسه ، وكأن يريد أن يقول لنا أنه ينسج على شاكلته، وبهذا فهو يطرح مقدرته على مُجاراة ما هو أعلى، ويرسم له نوعاً من الخصوصية

وتستمر الفكرة عند الشعراء فهذا أبي النجم وهو من شعراء العصر الاموي يدعي بأن شيطانه ذكر وينماز بالقوة لتكون له الأفضلية على غيره في قول الشعر[8] :

إني وكل شاعر من البشَر شَيطانه أنثى وشيطاني ذكر

وهكذا يتضح له أن الشعراء أنفسهم روجوا لفكرة ارتباط ما يقولون بقوى غيبية، كما يتضح لنا معرفتهم بالجن وقدرته الخفية، وقد تداولوا هذا في أشعارهم، وإن الفكرة ظلت راسخة عندهم ولم تقتصر على عصر معين

ويُكمل الوليدُ وصفَ ما سَمع من الكلام بأنّ له حلاوة وهي رقة في نسجه، وزاده على ذلك الرونق والنضارة والعذوبة التي تؤثر في القلب وهذه طلاوته، وكلام بهذه النعوت بالتأكيد سيكون مما ترتاح إليه النفس وله قدرة على استمالتها لذا فهو مثمرٌ، لأنّ أسفله كثيرُ العطاء ومُستحكم فهو يُغدق، وبعد كل ما ذكر أين ستكون مكانته؟ بالتأكيد في أعلى الهرم، إذ لا يُمكن أن يكون قريناً لغيره من الكلام، ولأنه خبير بلغة أبناء جنسه ودخل في أذنيه الكثير من الكلام بصورة عامة والشعر بشكل خاص فهو لم يجد ما هو مستنفر فيما سمع وكل لفظ هو في مكانه لا يُمكن التبديل ولا التعديل عليه كما كانوا يفعلون مع غيره من الكلام ولا سيما الشعر، لذا جزم بخبرته أن ما سمعه كان فوقَ كلام البشر.

ولم تكن قريش تتوقع أن تسمع هذا الكلام من الوليد وهو يثني على القرآن الكريم، إذ إنه في لحظة ما كان صادقاً ليس في وصفه من حيث هو قرآن، وإنما في القياس على أساس ما يمتلك من خبرة ، إذ لم يستطع إنكار أن ما تناها إلى فهمه كان جديداً ولم يسبق له أنْ سمع بمثله بعد أن عرضه على كل ما يمتلك من مخزون معرفي ، إما في حكمه على ما سمع أنه ليس من قول البشر فهذ يضعنا أمام أمور عدة منها جدية النص وقدرته البلاغية والإعجازية على أن يجعل العقول والنفوس تقف عنده حائرة

منبهرة ، ثم نفهم من هذا التحير غياب النص السابق للقياس، ونفهم أنه ليس ثمة نصاً سابقاً بين يدي العرب يمكن القياس عليه كما عند غيرهم من الامم. فمؤلفات اليونان القديمة لم تكن قد وصلت إلى أيديهم، ولم يكن لديهم مُنجز مجموع بين دفتين، ومُحاكمة المكتوب الجديد أمر في غاية التعقيد في غياب ما هو مُماثل أو مُقارب.

واستناداً إلى ذلك طلب الوليد برهة من الزمن لأجل التفكير، فإن ثمة مأزقاً حقيقياً دخل فيه، وإن كل خبرته في مجالات الحياة المختلفة التي خبرها بعمره الطويل لم تسعفه، وأبت أنفته أن يصرح بعجزه حقيقة مع أنه صرح به ضمناً عند وصفه حين سمع القرآن الكريم، وأخذ المهلة ليعيد النظر، لما زالت قريش ترى فيه رجلها المناسب لإنجاز المهمة، ولم يكن التأكيد عليه لإتمامها إلا لأن خروجه من دائرة الصراع يعني خروج الكثيرين معه فهو سيد بني مخزوم[8].